الفصل الثالث عشر

رائحة فقد

-آلو.. "إيلان إيرائيل" مَن المتحدث؟

-"إيلان".. هلا آتيت إلى شقتي؟ أريد الحديث معك في أمرٍ ما.

-مرحباً" ألبرت"، لكن ماذا هناك؟

-هناك أمرٌ هامٌ جداً، وددتُ الحديث معك بشأنه.

-إذن تعالى إلى هنا، ولنتحدث في مكتبي أو مكتبك.

-لا أريد الحديث في المكتب الأمر لا يتعلق بالعمل بتاتاً.

ورد" إيلان" مازحاً:

-لعله يتعلق بالزواج إذن.

قهقه "ألبرت" بصوتٍ عالٍ ثم هتف:

-لم أخطئ حين اتخذتُ منك صديقاً.. لم أجد شخصاً آخر يفهمني مثلك.

-الأمر صحيحٌ إذن؟

-مائة بالمائة.

-يا له من خبرٍ سارٍ، كنتُ في أشد الحاجة لمثله.. انتظرني، سآتي إليك بعد دقائق.

-سأنتظر لكن لا تنسى أن "جان" آتٍ هو الآخر.

-أوه، يا له من مأزق.. هل وجود هذا الجان ضروريٌ إلى هذا الحد؟

-لا تكن سخيفاً.. أنا في انتظارك.

وضع "إيلان" السماعة، وعدّل قليلاً من رابطة عنقه.. هبط درجات السلم في سرعةٍ وصفيرٌ خافتٌ يصدر من بين شفتيه.. استقل سيارته، واتجه صوب شقة "ألبرت".

دق جرس الباب، ولم تمضِ بضع دقائق حتى فتح "ألبرت" الباب، وتبادلا عناقاً حاراً، وقال "ألبرت" بصوتٍ خافتٍ:

-كن لبقاً قدر استطاعتك، فجان بالداخل، ولا أريد أن يتحول خبر زفافي إلى عراكٍ بين ضابطين من أكفأ ضباط الموساد.

-هكذا إذن.. واضح أنك وجدت الفتاة المناسبة، والتي قلبت حياتك رأساً على عقب.. لم أرك متحمساً لفعل شيءٍ ما كحماسك الآن.

- هل سنظل نتحدث هنا؟ هيا إلى الداخل.

ألقى "إيلان" تحيةً مقتضبةً على "جان".. وردها "جان" بنفس الاقتضاب.. وبعد دقائق، جاءت الخادمة، ووضعت كأسين من الخمر، وقالت:

-سيدي قادمٌ بعد دقائق.

وجاء "ألبرت"، وبدأ الحديث:

-تعلمان جيداً أنني أتيتُ بكما إلى هنا؛ لإخباركما بأمر زواجي، وهذا الخبر على قدر أهميته هناك ما هو أهم منه، ولكنني آثرتُ إخباركما بأمر زواجي أولاً حتى لا يضفي سوء الخبر الثاني على أمر زفافي جو من الكآبة، وقال "جان" بعصبيةٍ:

-تحدث يا "ألبرت".. ماذا هناك؟

-دعنا ننتهي من موضوع الزواج أولاً.

وتحدث "إيلان":

-أعتقد أننا بالفعل قد انتهينا منه.

-ليس بعد.. لم أخبركما مَن تكون العروس؟

وتحدث "جان" قائلاً:

-لا أعتقد أن هذا الأمر ذا أهميةٍ عند ضابطي مخابرات إلا إذا كانت العروس خائنة.

قال "ألبرت" ساخراً:

-ليست خائنة، لكنني بمساعدتكما سأجعل منها كذلك.

-أنت غامضٌ أكثرُ من اللازم.. مَن تكون العروس؟ تحدث بوضوح.. قال "إيلان".

ولم يكد "ألبرت" ينطق باسمها حتى هب "إيلان" واقفاً وكأن حيةً لدغته، وهتف في عصبيةٍ:

-أنت تمزح أليس كذلك؟.. لابد أنك تهذي!

****

أحسّ "ياسر" أن الأمر سيزداد سوءاً، وأن الفوضى ستعمّ المعسكر إن ازداد تدافع الجميع أكثر من ذلك.. وسيعمّ الهرج، ولن يستطيع السيطرة على المعسكر ككل، ثم إن وجود خائنٍ بالمعسكر للمرة الثانية سيكون له أبلغ الأثر السلبي في نفوس الجنود وخاصةً إن كان هذا الخائن هو جنديه المقرب.. وأصدر الأوامر بأن يعود كل جنديٍ إلى مكانه وإلا سيحاسب مَن يخالف الأمر وذنبه على عنقه.. لكن الغرفة كانت قد امتلأت

عن آخرها، وهدوء "جهاد" والخوف الذي يلوح على ملامحها قد وجّه كل الأنظار حولها.

وتدافع الصحفيون إلى داخل الغرفة، وثبتت "جهاد" نظرها على "سلمى وحسام" وحاولت أن تتمالك نفسها، وأن تجاهد البكاء الذي سيشطر قلبها نصفين.. ودخل أحد عمال النظافة إلى الغرفة، وهو يهتفُ:

-هذه هي الورقة التي وجدتها على فراش السيد "جهاد" يا سيدي.. إنني في حالة صدمة لا أكاد أصدق.

ولم تدرِ "جهاد" عن أي ورقةٍ يتحدثون؟ أيعقل أن يكون ما حدث ليس له علاقة "بسلمى وحسام"؟ ولم يُفلح عقلها المجهد في فهم ما يجري حولها، ولم تستطع أن تتمالك نفسها أكثر من ذلك، فأجهشت بالبكاء.. وتقدمت إليها "سلمى" وطبعت قبلة على جبينها، وهتفت بصوتٍ خافتٍ:

-لا تخشي شيئاً.

نظرت إليها "جهاد" في ذهولٍ .. وابتسمت "سلمى" برغم دموعها، وهي تقول:

-مَن سيحسّ بكِ غير صديقتكِ؟

تكلم "حسام" حانقاً:

-"سلمى".. ما هذا الذي تفعلينه؟ كفي عن هذا العبث.

لكنها لم تعره اهتماماً، وتقدمت إلى "ياسر" وطلبت منه أن يغادر الجميع الغرفة، وأن يسمح لها بالجلوس مع الضابط "جهاد" لدقائق.

وتساءل ياسر في عدم فهمٍ:

-ماذا هناك؟

-من فضلك.. اسمح لي بما طلبته منك.

وأمر "ياسر" الجميع بالخروج، ولم يتبق سوى "سلمى وجهاد"، والتي بمجرد أن خرج الجميع ارتمت في أحضان "سلمى"، وتلقتها "سلمى" بين ذراعيها تضمها في لهفةِ ضمة أمٍ لوليدها، وتتحسس رأسها، وكأنها لا تصدق أنها لا زالت على قيد الحياة، وبكت "جهاد" وكأنها تبث "سلمى" كل آلامها.. ظلت "سلمى" تربت على كتفها بهدوءٍ، وأخذت تمتمُ والدموع في عينيها:

-لماذا ابتعدتِ عنا؟.. كيف هُنّا عليكِ؟!

وشعرت "جهاد" أن "سلمى" لم تفهم شيئاً مما تفوه به "طارق"، وأن "سلمى وحسام" لا زالا يجهلان أمرها.. وفُتح الباب فجأة، ودخل منه "ياسر" وتفاجأ بتواجد "جهاد" بين أحضان "سلمى" فهتف مأخوذاً:

-ما الذي يحدث هنا؟!

وقبل أن يتم عبارته، لمح شعراً طويلاً قد انسدل على كتفِ "جهاد" تاركاً غطاء الرأس العسكري دون قصدٍ منها، فابتسم دون قصدٍ منه.. ثم هتف موجهاً الكلام لسلمى:

-اتركينا بمفردنا لدقائق.

تركت "سلمى" الغرفة فوضع ورقةً كانت بين يديه على الطاولة، ثم هتف:

-لم أفهم ما الذي يحدث؟ لكن هناك ما هو أخطر، وطبيعة عملي علمتني أن نتحدث في الشيء الخطير أولاً.. أحد عمال النظافة يقول أنه وجد هذه تحت وسادتكِ.. وأمسكت "جهاد" بالورقة لتقرأها

" الليلة سيختطف "عبدالرحمن" وسيصبح أحد أهم أسرى الموساد، بأي شكل ومهما كان الثمن حاولي التواجد في شارع " دونلي " بتل أبيب عند العمارة رقم ٥، والتي تقع في الجهة الخلفية لمبنى الموساد.. هناك حقيبة ملابس خلف شجرة الكافور الضخمة القريبة من المعسكر، ويوجد بها قفاز مطاطي يحمل بصمات أحد أهم رجال الموساد، والذي تشبيهينه تماماً في تنكركِ الرجالي.. وموجودٌ بالحقيبة أيضاً بطاقته المعدنية.

في الواحدةِ صباحاً يمكنكِ الدخول إلى المبنى، والذي سيكون شبه خالٍ من المارّة، وذلك استعداداً؛ لإقامة عرسٍ سيقلب الأمور رأساً على عقبٍ.. فوراً اصعدي إلى الدور الثالث، المكتب رقم ٧، واحملي أكبر قدرٍ من الوثائق والأوراق، والتي سنحاول أن نستخدمها؛ لإثبات خيانة أحد أهم ضباط الموساد.. واهبطي من سلمٍ غير الذي صعدتِ منه.

في الحديقة الخلفية للمبنى ستجدين أحواضاً من المياه؛ لسقيا الزهور، اذهبي إلى الحوض العاشر وستجدين "عبدالرحمن" قد وُضع في حوضٍ من المياه المكهربة كنوعٍ من أنواع التعذيب قبل البدء في مهمته.

افصلي مفتاح الكهرباء عن الحوض، وأخرجي "عبدالرحمن" وسيري باتجاه السور المقابل سبعة أمتار فقط، وستجدي أمامك البوابة المعدنية وقد تركتها مفتوحة خصيصاً لكِ.. ستجدين سيارة سوداء بدون لوحاتٍ معدنية ستقلكم إلى "نابلس" حتى يتم إخفاء "عبدالرحمن" بعض الوقت وستعود بكِ السيارة نفسها إلى المعسكر بعد قليل.

وددتُ أن أقوم بهذا بنفسي لكن التشابه بينك وبين أكفأ ضباط الموساد سيساعد في نجاح العملية بشكلٍ أعظم.. ثقي بي جيداً، واعلمي أن هناك الكثير من العمليات التي سنقوم بها سوياً أنا وأنتِ فقط، ولذلك أقترحُ عليكِ أن تتركي المعسكر إلى غير عودةٍ، فتخلف محارب لن يضير، ومع ذلك سنكسب فدائياً مهماً يستطيع أن يغدو ويروح داخل أروقة الموساد دون أن يكشف أمره أحد.

إذا كُللت العملية بالنجاح ستجدين مني رسالة أخرى بعد ثلاثة ليالٍ، وُضعت بنفس الكيفية تحكي تفاصيل عمليةٍ قادمةٍ"

أنهت "جهاد" قراءة الورقة، وقالت في عدم فهمٍ:

-هذه هي الرسالة الأولى من نوعها التي تصلني بهذا الشكل، كما أنني لا أجد في الرسالة ما يثبت أنني خائنة!!

-يبدو أن العامل قد قرأ الثلاثة أسطر الأولى فقط، والتي تحملُ نبأ اختطاف "عبدالرحمن"، فلم يكمل آخرها.

وطُرق الباب، ولم يكن الداخل منه سوى "سلمى وحسام" الذي ارتسمت على ملامحه مشاعر بهجةٍ ممزوجةٍ بحب، فجلس على الجانب الآخر من الطاولة دون أن ينطق، فهتفت "جهاد":

-كيف حالك يا "حسام"؟

- تنهد ثم قال بصوت خافت:

-ليتكِ لم تتركينا.. كنا بحاجةٍ إليكِ.. لكن حاجة الوطن إليكِ أعظم؛ لذلك سأسامحكِ.. بالمناسبة هذا هو "ياسر" أخي الوحيد، والذي لطالما حدثته عنكِ، وكثيراً ما استعنتُ به في البحث عنكِ، والعجيب أنه كان يسأل عنكِ كل معارفه بالمدن والقرى رغم أنكِ كنتِ بجانبه طوال الوقت.

قال "ياسر"متنهداً:

-للأسف وددتُ الحديث معكم، والاحتفال بلقائكم أنتم الثلاثة بعد كل هذه الغيبة لكن هناك أمرٌ لا يحتمل تأجيل الحديث فيه.. وأعطى الخطاب إلى "حسام وسلمى" كي يقوما بقرائته.

وبمجرد أن انتهى "حسام" من القراءة هتف:

-وماذا إن كان هذا فخٌ دبّره اليهود؛ لإيقاعنا به.

وهتفت "سلمى":

-ثم كيف توصلوا إلى حقيقة "جهاد" بسهولةٍ هكذا.. رغم أننا أقرب الأقربين إليها، ومع ذلك لم نستطع الوصول لها إلى بعد معاناةٍ.

نظر "ياسر" إلى "جهاد"؛ ليستحثها على إبداء رأيها.. وهتفت "جهاد":

-أعتقد أن كل ما جاء في الخطاب حقيقي مائة بالمائة.. كاتب الخطاب قال إنه بشكلٍ أو بآخرٍ سيأسرون "عبدالرحمن" الليلة حتى لو اضطروا إلى هدم المعسكر، وإبادة مَن فيه؛ لإنهم بحاجةٍ إليه وإذا كانوا متأكدين من نجاحهم من أسر "عبدالرحمن" فلمَ لا يأسرونني معه بذات الطريقة توفيراً لكل هذا الجهد والتعب؟

وهزّ "ياسر" رأسه مصدقاً على كلامها.. وهتف "حسام" بعصبيةٍ:

-مستحيلٌ أن أتركِ تذهبين إلى هناك وحدكِ.. أتظنينها نزهة؟! هذا الخطاب يثبت أنهم أحدُ أهم أقوى جهاز مخابرات في العالم.. وإن دخلتيه ستخرجين منه جثة هامدة.

وهتفت "جهاد":

-ولا يخلو أي جهاز مخابراتٍ في العالم مهما كانت قوته من وجود بعض الثغرات به.. وكاتب هذا الخطاب يبدو أنه هو الثغرة المقصودة، وأمسكت "سلمى" بيد "جهاد" وكثرت الآراء، واحتدمت المناقشة.

******

-لماذا انفعلت هكذا؟.. وما سرّ رفضك التام لزواجي منها يا "إيلان"؟

وتحدث "جان" في تعجبٍ:

-كنتُ أعتقد أنك أول مَن سيرحبُ بزواج "ألبرت" من "حياة" وإطلاق إشاعة أنها ترغب في هذا الزواج وسعدت به.. إن نجحنا في فعل هذا سيكون له أكبر

الأثر في نفس كل مصري وعربي، وتخيل إن أسقيناها مسكراً أو دواءً مخدراً حتى تتفوه ببعض الكلمات التي تدل على سعادتها، وفرحتها العارمة بهذا الزواج.. زواج واحدةٍ مثلها برجلٍ من أخطر ضباط الموساد سيكون بمثابة انتصارٍ عظيمٍ لنا، يكاد يفوق انتصارهم في حرب أكتوبر اللعين، والذي سنعاني ذكراه بعد أيامٍ.

ترجل "إيلان" ووضع يديه في جيب سترته هاتفاً:

-عملية "حياة" تخصني من البداية وحتى النهاية.. وأعتقد أنني الأحق بأن أقرر مصيرها.. ومنذ أن أتيتُ بها إلى هنا، وأنا حددتُ موقفها بشيئين لا ثالث لهما، إما أن تعترف ونعلن نحن خيانتها، وإما أن ترفض الاعتراف فنقتلها.. مسألة الزواج هذه لم أضعها ضمن الخطة مطلقاً، وأكرر أمر "حياة" راجعٌ إليّ، ولا يمكن لأحدٍ التصرف فيه بدون موافقتي.. هل انتهينا؟

-وماذا إن وافق الرئيس نفسه على زواجي منها؟.. ولم يقتصر رده على الموافقة فحسب بل أعجب بها أنا مقدمٌ عليه، وأخبرني أن "حياة" هذه لا يمكن أن تقتل بسهولةٍ هكذا.. شأنها شأن أي أسيرٍ عاديٍ، لابد أن نستفيد من وجودها هنا بأي شكلٍ ومهما كانت الطريقة.

-زواجك من "حياة" وإن كان في نظر الموساد مكسباً فستخسرون في مقابله رجلٌ من أكفأ ضباط الموساد.. ثم أتبع " إيلان كوهين إيرائيل " .. قال إيلان، ثم توجه خارجاً.

-انتظر يا "إيلان" اشرح لنا كيف لأمر أسيرة كهذه أن يكون على هذه الدرجة من الأهمية لديك لدرجة أنك تضع استقالتك من خدمة إسرائيل في مقابله.

شد "إيلان" رابطة عنقه في ضيقٍ، وهو يهتف:

-ماذا تقصد؟

ورد "جان" باستفزازٍ واضحٍ:

-"إيلان" ليس غبياً.. "إيلان" يفهم كل كلمةٍ قيلت في هذا الباب.

-لا تقحم نفسك أنت في أمورٍ لا دخل لك بها يا هذا، ذكرني باسمك إذا سمحت!

وهتف "ألبرت" في عصبيةٍ:

-كفا عن هذا العبث.. "جان" كلامه صحيح يا "إيلان".. لقد عبث الشك بقلبي رغم قربي لك وتأكدي من وطنيتك تجاه وطننا إسرائيل!

-صحبتك لهذا الأحمق يا "ألبرت" جعلتْ منك أحمقاً مثله.. لا تتحدث معي مطلقاً بشأن موضوع الزواج من "حياة".

أدار "إيلان" ظهره، وتوجه إلى الباب عابراً منه إلى الخارج، وقبل أن يغلقه خلفه تحدث "ألبرت":

-لمْ نتحدث في الموضوع الآخر..

-نتحدثُ فيه غداً في المكتب.. بالتأكيد يخص العمل، والحديث بشأن العمل يكون في مكان العمل.

- لو كان الأمر عمليٌّ بحت ما جمعتكما هنا.. طلبتكما في شقتي حتى يكون معنا متسعٌ من الوقت، وفرصة للهدوء إذا ما تعقد الأمر، وتشوهت طريقة الحديث، وحتى نكون بعيدين عن كاميرات المكتب وحضور الحراس وما إلى ذلك.

وتحدث "إيلان":

-أخبرتك ما لديّ.. أنا راحلٌ.

-حتى لو كان الحديث يخصّ امرأةً تدعي أنها مصرية، وتهذي بكلامٍ غير مفهومٍ كقولها أن السيدة شيرا ألقتها وأبناءها في اليم، وكانت سبباً في أسرها منذ تسعة عشر عاماً.

وتجمد "إيلان" في مكانه كأنه الصخر، وتصلبت نظراته، وتغيرت ملامح وجهه، وصمت وكأن على رأسه الطير.. وعاد بخطواتٍ وئيدةٍ إلى داخل الشقة، وارتمى على أقرب مقعد.. وبهت "جان" و"ألبرت" من ردة فعله، والطريقة العجيبة التي تقبل بها الأمر.. وهتف "ألبرت" في دهشٍ:

-ماذا هناك؟.. لماذا تصلبت هكذا؟!

****

طُرق الباب، ودخل "عبدالرحمن" لاهثاً، وهو يهتفُ:

-وجدتُ هذه تحت وسادتي يا سيدي.

ووضع الورقة على الطاولة، والتي لم يكن بها سوى تهديدٌ لعبدالرحمن بمغادرة المعسكر، والذهاب إلى شارع " بنويلا " الشارع الرئيس بتل أبيب قبل السادسة مساءً، وإلا سيتم تفجير المعسكر عن آخره بالإضافة لأسر والدته، وتدمير حييهم بالكامل.

وبهت الجميع.. وهتفت جهاد بصوتٍ نسائيٍ لأول مرةٍ أمام "عبدالرحمن":

-لن نتخلى عنك.

دهش "عبدالرحمن" ثم أمعن النظر في وجهها، وابتسم عند رؤيته لشعرها المنسدل على كتفيها والتي بادرت هي بإخفائه، فقال ضاحكاً:

-والله كثيراً ما حدثتني نفسي بذلك لكنني كنتُ أخشى مضايقتكِ إن صارحتكِ به.

وهتف "ياسر" في عصبيةٍ:

-ليس هذا وقت مزاح!!!

وقال "عبدالرحمن" ساخراً:

-اتركوني أمزح كيفما أشاء لربما كانت هذه آخر مرةٍ نمزح فيها معاً.

وتحدثت "جهاد":

-لن نتركك حتى لو كلفنا الثمن حياتنا.

-حياتكم أغلى من أن تهدروها من أجل خائن.

وقال "ياسر":

-نحنُ لم نعتد الحرب يا "عبدالرحمن"، ولم نفقه حتى إطلاق الرصاص وتبادل النيران.. كل ذلك لمْ نتدرب عليه إلا قريباً.. نحن أرض السلام التي دُفعت إلى الحرب دفعاً دون أن يكون لها يدٌ في تقرير مصيرها.. فالحرب خدعة، وأنت لم تفقه خدعتهم.. أنت لم تذهب إليهم؛ لتخبرهم أسرارنا الحربية.. أنت وازنت بين حياة شخص واحدٍ وبين حياة ألف فرجحت كفة الألف.

-لا تضيعوا وقتكم بالحديث معي.. سأذهب إليهم ربما طُلب مني تنفيذ عمليةٍ ما لصالحهم وربما نجحتُ في إبلاغكم بها حتى تنجحوا في إيقافها.

-سيقتلونك إن فعلت.

-ليس أعز عندي من الشهادة في سبيل الوطن.. يا ليتني أملك ألف روحٍ حتى أنفقها كلها في سبيله لعل الله يغفر خطأي في حقه يوماً ما.

-المسألة تتأزم.. لابد أن ترحل أنت وجهاد من هنا فوراً.. قال "حسام".

وترجلت "جهاد" قائلةً:

-أما أنا فلن أتراجع فهي إحدى الحسنيين.. إما أن أنفذ عملية ناجحة وإما شهادة.. لكن هناك أمراً ما لابد أن أوؤديه أولاً.

-انتظري يا "جهاد" سآتي معك.

وانطلقت إحدى سيارات المعسكر في طريقها إلى غزة وتحدثت "سلمى" بعنفٍ:

-إلى أين نحن ذاهبتان؟

-هناك أمرٌ ما يتحتم عليّ أن أنجزه أولاً.

توفقت العربة أمام مشفى الجلاء التخصصي، وهبطت "جهاد" من العربة ببطءٍ، وعقلها يكاد يقف من التفكير.. ستذهب إلى "طارق" ستحاول قدر استطاعتها أن تعيده إلى وعيه، لابد أن تقف إلى جانبه قبل أن تدخل إلى الموساد.. مَن يدري؟ ربما لن تخرج منه بعد ذلك.. وسيظل قلبها يلومها على موقفها السلبي، وتخاذلها في حق "طارق".

ربتت "سلمى" على ظهرها، وكأنها تشجعها على ما هي مقدمة عليه.. لكن ماذا إن نجا "طارق"؟ ماذا سيفعل بها؟.. لابد أن وثائق مهمة جداً وقعت بين يديه أنبأته بماضيها اليهودي، ويبدو أنه لم يتقبل ذلك مطلقاً مما دفعه بأن يفعل ما فعل في آخر لقاءٍ بينهما.

وكادت جهاد أن تتراجع لكن يد "سلمى" التي تربت على ظهرها جعلتها تتقدم إلى الأمام وقلبها يكاد يسقط أرضاً.. وأخيراً اقتربا من حجرة "طارق"، وازداد قلق "جهاد" وما إن وقفا أمام زجاج الغرفة حتى تفاجأتا بشيءٍ لم يخطر لهما على بال، فهتفا في صوتٍ واحدٍ:

-أيعقل؟!

****

حاول إيلان أن تبدو لهجته طبيعية ثم قال :

-لأن أمي حدثتني بشأن هذه السيدة يوماً ما، وكثيراً ما عانت والدتي بسببها فقد كانت تراها في يقظتها قبل منامها.

فقال "ألبرت" متسائلاً:

-تقصد أن كلام السيدة قد حدث بالفعل.. وأن السيدة "شيرا" كانت السبب في أسر المرأة رغم أن المرأة كانت يهودية مثل والدتك، وكانت ترغب في السفر إلى أحضان الوطن الوليد؟

وتحدث "إيلان" بصوتٍ ثابتٍ وملامح جامدةٍ:

-نعم.. لكن والدتي توقعت أن هذه المرأة جاسوسة.. بعض أفعال المرأة أنبأتها بذلك.. فكان ما كان.. ومع ذلك عانت والدتي بسبب هذه المرأة وأبنائها أكثر مما عانت هي.

وتساءل "جان" في شكٍ:

-كيف ذلك؟!

-تعلمانِ أن والدتي تعاني من الهياج العصبي والمرض النفسي الذي أصابها في الأيام الأخيرة، وقد كانت صورة هذه المرأة وأبنائها هي السبب.. لم تفارق صورتهم وهم يغرقون ذهن والدتي، ولم تفارق كلمات المرأة سمع والدتي " لمَ تشردين يهودية مثلكِ.. ألا يكفي ما هي فيه من تشرد"؟!

وأنتما تعلمانِ أن والدتي تقدس كل ما هو يهودي، وتستميتُ من أجل خدمة هذا الوطن لذلك في أيامها الأخيرة شعرت بموقفها المتخاذل تجاه هذه المرأة والتي باتت تظهر لها في كل وقتٍ وفي أي مكان.

ورغم أنني أجريتُ أبحاثا مطولة عن هذه المرأة، واكتشفتُ أنها كانت جاسوسة خطرة، ولطالما آذت اليهود المصريين، وأن أبناءها لا زالوا على قيد الحياة حتى الآن وتكبدت إسرائيل بسببهم آلاف وأعظم الخسائر، ومنذ أسبوعين وأنا أضع خطة؛ للإيقاع بهم؛ لأنهم ما زالوا يقيمون العمليات الفدائية، ويدبرون المكائد؛ للإيقاع بنا في كل وقت، ثم إنني حاولتُ إقناع والدتي مراراً وتكراراً بادعاء هذه المرأة وكذبها حتى تنجو من الموت إلا أن حالتها كانت قد ساءت بالفعل، وظنت أنني إنما أقول ذلك كذباً رفقاً بها وبمرضها الذي يتضخم في كل ثانيةٍ.

وتساءل "جان" في شكٍ:

-وماذا إن كنتُ لا أصدق ما تقول يا "إيلان"؟

-ولكنني لا أقول هذا لك من الأساس.. أنا أتحدث مع "ألبرت" فلا تحشر أنفك في الحديث.

وقال "ألبرت" متجاهلاً تعليقات جان:

-ماذا سنفعلُ إذن؟

ورد إيلان في سرعةٍ وتشفٍ واضحٍ:

-نكّلوا بها أشد التنكيل، وعذبوها بأبشع وسائل التعذيب، وأجبروها على الاعتراف بحقيقتها المزرية وبخطيئتها الشنيعة في حق إسرائيل. وأذيقوها كل ألوان العذاب، لكن إياك أن تقتلها إنني أريدها حية وخلال الأيام القليلة القادمة سآتي بوالدتي كي تسمع اعترافها بأذنيها حتى يهدأ قلب والدتي، وتتحسن حالتها بعض الشيء.

-لا تزعج والدتك، سآتي أنا بالمرأة تحت أقدام والدتك حتى تقول لها ما تودُ منها قوله.

-إياك أن تفعل.. أخشى أن ينجح أبناؤها في إنقاذها وتحريرها من الأسر.

-كما تشاء يا "إيلان".

-وهناك أمرٌ آخر وددتُ ان أحدثك فيه.. أتذكر المفاجأة التي حدثتك عنها بشأن "حياة"، سنقوم بتنفيذها غداً.

-وهل ستظل مفاجأة بالنسبة "لألبرت"؟

ورد "إيلان" ضاحكاً:

-سأكشف لك جزءاً من الخطة حتى تساعدني في تنفيذ هذا الجزء.

وضحك "ألبرت" بصوتٍ عالٍ قائلاً:

-لولا أنك تريد المساعدة؛ لتفاجأتُ بما ستفعل مثلي مثل أي أحدٍ هكذا.

وقهقه "إيلان" عالياً.. وراح يشرح خطته الكاملة لألبرت وجان.

****

أسرعت "جهاد" إلى غرفة الطبيب المختص، وهتفت لاهثةً:

-"طارق" ليس بغرفته.. ماذا حدث؟

وتنهد الطبيب في أسى دون أن ينطق.. وهتفت "جهاد" في فزعٍ:

-أرجوك تحدث.. ماذا هناك؟

فقال الطبيب:

-للأسف فقدناه.

وانهارت "جهاد" على أقرب مقعد، وهتفت بصوتٍ مبحوحٍ لا يكاد يخرج من بين شفتيها:

-أنا السبب!

وحاولت "سلمى" تهدئتها في حين أن الطبيب هتف متعجباً:

-حاولنا إنقاذه قدر استطاعتنا لكن إرادة الله كانت نافذة وقدّر الله له ذلك.. لم يعطونا الفرصة؛ لإنقاذه، هجموا علينا عند منتصف الليل، وقتلوا اثنين من الحراس وأصابوا الممرضة، ولم نقدر على انتزاعه من بين أيديهم.

لم تفهم "سلمى" شيئاً مما قاله الطبيب، فقالت في تعجبٍ:

-معذرة، لم أفهم.. انتزعوا مَن من يد مَن؟

-أقصد السيد "الطارق".. من الواضح أنه ذو أهميةٍ عظيمةٍ في حركات المقاومة التي بدأت تشمّ أنفاسها منذ فترةٍ قصيرة ..... .

-أرجوك لا أريد أن تشرح لي ما الذي حدث لطارق.. أنا أريد أن أعرف أين هو؟

-اختطفته إحدى الدوريات الإسرائيلية.. أخذوه بالقوة، ووضعوه في سيارة الإسعاف الخاصة بهم، وانطلقوا به بعيداً، ولم نستطع اللحاق بهم.

وهتفت "سلمى":

-اهدأي يا "جهاد".. كفي عن هذا النشيج.. "طارق" لم يمت.. إنه خُطف.

فتوقفت "جهاد" عن البكاء في شبه صدمةٍ، في حين أن الطبيب هتف:

-جهاد!.. هل أنتِ صاحبة هذا الاسم؟

ولم يجبه أحدٌ.. وانطلقتا إلى خارج المشفى.

****

وقفت السيارة أمام الباب الخارجي للمعسكر، وهبطت منها "سلمى" و"جهاد" متجهتين إلى الداخل، وبمجرد أن خطيا خطواتٍ قليلةٍ حتى وصلت إلى أنفيهما رائحة فقدٍ، وتساءلت "جهاد" رغم أنها كانت تعرف الإجابة مسبقاً:

-هل فقدنا "عبدالرحمن"؟

-نعم.

واتجه "ياسر" إلى مكتبه، ومن خلفه "حسام" و"سلمى" و"جهاد" وقام جميعهم بدراسةٍ للخطة الموضوعة؛ لدخول الموساد بشكلٍ أدق وبصورةٍ أقرب، وبعد ساعة ونصف الساعة خرج ثلاثتهم من المكتب، واحتضنت "سلمى"" جهاد" وهي تقول:

-عديني أنكِ ستعودين مرةً أخرى.

-أعدكِ.. سأعود من أجلكِ ومن أجل طارق ومن أجل المعسكر.. سأعود من أجل أشياء كثيرة لابد أن أنجزها قبل أن يداهمني الموت.. ورحلت "جهاد"!

****

وفي تمام السابعة مساءً، توقفت السيارة السوداء في شارع " دونلي " بتل أبيب، وهبطت منها "جهاد" وهي ترتدي ثياباً رسمية تحمل العلم الإسرائيلي على صدرها.. وقفت أمام الباب الرئيس، وأبرزت بطاقتها المعدنية، والتي تحمل شعار المخابرات الإسرائيلية، ودون أن تنطق أدى رجل الأمن التحية، وهو يهتف:

-المبنى خالٍ من جميع الضباط يا سيدي، ولا يوجد سوى بعض عمال النظافة وبعض أفراد الأمن، فإذا احتجت لشيءٍ بخصوص الأسير الجديد فأنا رهن إشارتك.. لقد أخبرني حارس الأمن النوبتجي الذي تسبقني فترة عمله بأمر ذاك الأسير الجديد، والذي يتحتم علينا أن نحافظ عليه ولو كلفنا ذلك أرواحنا.. هزت "جهاد" رأسها وتمتمت:

-ليكن إذن.

أدى الرجل التحية مرةً أخرى.. وتركها تعبر إلى الداخل فاتجهت مباشرةً إلى الدور الثالث.. كان الممر خالياً سوى من بعض أفراد الأمن الذين يجلسون والملل متجسدٌ على ملامحهم.. توقفت أمام الحجرة رقم ٧، ووضعت يديها على مقبض الباب، ولم تدرِ أنها تفتح على نفسها أحد أبواب جهنم

وفتحت الباب.. لكنها كانت المفاجأة التي لم تخطر لها على بال.. لقد وجدت بالغرفة شبيهاً لها لا تختلف عنه في شيءٍ، ودق قلبها في عنفٍ، ولم تدرِ ما الذي يتحتم عليها فعله؟ لقد وقعت في الفخ.

همت بالخروج من الغرفة مرةً أخرى لكن الجالس وراء المكتب هتف في صرامةٍ:

مَن أنت؟.. وماذا تفعل هنا؟

وتلعثمت "جهاد" دون أن تنطق.. أعاد سؤاله مرةً ثانيةً بصوتٍ جامدٍ كأنه الرعد.. لم ترد أيضاً فأخرج من جيبه مسدساً فجأة، وهو يهتف في عنفٍ:

-هذا ما حذرتهم منه.. إقامة التأبين الليلة سيدفع الفلسطينيين للاستهتار بأمن الموساد، وسيدفعهم إلى محاولة خداعٍ أو تخريبٍ؛ لإنقاذ الأسير الخاص بهم.. هيا ارفع يديك فوق رأسك فلقد انكشف أمرك.

ولم ترد "جهاد" فقط قالت بصوتٍ رجولي:

-أنت مَن أرسلت لنا الخطاب.. أليس كذلك؟

-أيُّ خطابٍ؟

-أقصد أنك مَن رتبت الفخ.. وأنت من دبرت دخولي إلى هنا؟

عقد "إيلان" حاجبيه واتجه إليها في بطءٍ وهتف:

-هل وصلكم خطابٌ يحوي ذلك؟

وشعرت "جهاد" أن هناك حلقاتٌ مفقودةٌ لا تعلمها.. وإنها إن نطقت بأي شيءٍ يخص أمر الخطاب فقد يدفعهم إلى البحث عن ذاك الذي يمنح أخبارهم إلى الفلسطينيين.. فآثرت الصمت.

فقال "إيلان" في تهديدٍ صارمٍ:

-احكِ لي ما لديك وإلا قتلتك هنا.

ولم تجب.. فاقترب منها في هدوءٍ، وقبل أن يصل إليها، فُتح الباب ولم يكن الداخل منه سوى "ألبرت" الذي شهق في ذهولٍ قائلاً:

-بحق الشيطان.. مَن أنتما؟

ودون أن ينتظر إجابة أخرج مسدسه.. وهتفت "جهاد" بصوتٍ حاولت قدر استطاعتها أن تجعله ثابتاً:

-أنا "إيلان إيرائيل".

فقهقه "إيلان" قائلاً في سخرية:

-حقاً.

وأسقط في يدِ "جهاد".

****